

أَمَا أَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ لَفَتَحَتْ أَقْفَالُ الْقُلُوبِ وَلَانَ مَا كَانَ عَصِيًّا مِنَ الْأَفْتَدَةِ ،
ولأوقدت مصابيح عهدُها بالنور بعيد، وأشرقت دروب لم يسقط عليها فيما مضى
نور، ولحيّت نفوس ما عرفت قبل ذلك حياة .

ألم يسمه الله نوراً فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء].

أولم يسمه الله روحاً فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى] ؟

فهو روح ونور— وهل بعد ذلك شيء ! وهل قبله شيء !

ليت شعري هل يفقه الناس ؟

ألا ليت الناس يفقهون .

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:

١- فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت^(١) تقول: هو يتعلم وهو متعلم. ف (يتعلم) يدل على الحدوث والتجدد أي: هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف: (متعلم) فإنه يدل على أن الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها. ومثله: هو يحفظ وهو حافظ. ف (يحفظ) يدل على الحدوث والتجدد و(حافظ) يدل على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله: هو يجتهد ومجتهد.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يوتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أترأه سيفشل في مهمته؟ فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررته أي: كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِقُونَ﴾ [هود] فلم يقل: سأغرقهم أو إنهم سيغرقون. ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كأن الأمر استقر وانتهى. ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت] ولم يقولوا: سنهلك. فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي: كأن الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

(١) انظر كتابنا: (معاني الأبنية في العربية) باب: (الاسم والفعل).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام] فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج) واستعمل الاسم مع الميت فقال: (مخرج) وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام].

وقد تقول: ولماذا قال في سورة آل عمران ﴿وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [١٧] بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين؟

فنقول: إن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٦] ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١٧] [آل عمران].

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّحْمِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [١٦] فالقُ الإصباح وجعلَ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسماً أيضاً ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و (فالق الإصباح) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغيير والحركة. فالسياق مختلف ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية. فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَتَرَّصْتُمُونَ﴾ [الأعراف].

«ففرق بين طرفي التسوية فقال: (أدعوتموهم) بالفعل ثم قال: (أم أنتم صامتون) بالاسم ولم يسو بينهما فلم يقل: أدعوتموهم أم صمتم بالفعلية. أو: أنتم داعوهم أم صامتون.

وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له. ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاثمته في عقله. فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسو بينهما بل جاء للدلالة على الحالة الثابتة بالاسم: (صامتون) وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل: (دعوتموهم) أي: أحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت»^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «إن قيل: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهام أمر دعوا الله دون أصنامهم... فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتموهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتم عن دعائهم»^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ﴾ [هود].

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك) وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة

(١) معاني الأبنية ١١-١٢.

(٢) الكشاف ١/٥٩٢.

عَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِمَعْشَرِ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْبَانًا الَّذِي أَجَلْتَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَاصْبِرْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٧﴾ لِمَعْشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَنُذِرُواكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا سَهْدًا عَلَيْنَا سَهْدَانَا عَلَيْنَا أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْتُهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٨﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢٩﴾ [الأنعام].

فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يكلفوا ولم يأتهم رسل ينذرونهم. فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى: ﴿ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [يس]. فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠١﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكِرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [هود].

فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا. فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك). ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على الماضي (ذلك أن لم يكن ربك) لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة. وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ [هود].

أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال].

فقد جاء في صدر الآية بالفعل: (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم: (معذبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه - أي العذاب - موقوت ببقائه بينهم. فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الإسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات. ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية (ظالمون). فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [البقرة].

«فقد فرق بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (آمننا)، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام (إنّا معكم) ولم يسوّ بينهما فلم يقولوا: (إنّا مؤمنون) كما قالوا: (إنّا معكم) وذلك إمّا لأن أنفسهم لا تساعدكم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة... وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة

ووفور نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد^(١).

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر].

فاستعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا فيه) ومع النهار الاسم (مبصراً) ولم يسوّ بينهما فلم يقل: ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو: (لتبصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس]. ولو قال: «هو الذي جعل لكم الليل ساكناً» لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساج، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذلك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً. ولو قال: «لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه» لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز. ولو قال: «ساكناً ومبصراً» لفاتت الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية. ولو قال: «ساكناً ولتبصروا فيه» لفات المجاز في التعبيرين وكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا قبل قليل.

(١) انظر الأبنية ١٢-١٣، والكشاف ١/١٤٢.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره .
فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى
هذا المؤدى . هذا علاوة على ما في جعل النهار مبصراً من جمالٍ وزيادة في
المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معينين :

الأول: أننا نبصر فيه كما قيل: ليل نائم والمقصود: نائم أهله .

والمعنى الآخر: أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا
بالخير والشر فكأن له عينين تبصران . فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً . فانظر
إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته . جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن
قلت: لِمَ قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال؟ وهَلَّا كانا حالين أو مفعولاً
لهما فيراعى حق المقابلة؟»

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى
الآخر، ولأنه لو قيل: «لتبصروا فيه» فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي .
ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى
قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز»^(١) .

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة (الكافرون) وهو قوله
تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدتُّمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ .

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين: الفعلية
والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) وبالفعلين: المضارع
والماضي (تعبدون) و (عبدتم) . ونفى عن الكافرين العبادة الحقبة بصيغة واحدة
مرتين هي الصيغة الاسمية: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة
في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال . إذ لو اقتصر على الفعل لقليل: إن هذا أمر

(١) الكشاف ٥٨/٣ .

بِالْأَسْحَارِ ﴿٧﴾ [آل عمران] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ [السجدة]. وقال: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ﴿٧٦﴾ [طه] وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ [الروم]. وغيرها وغيرها.

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنعام] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ﴿١٣﴾ [البقرة] وغير ذلك وغيره. جاء في (البرهان): «ومن هذا يعرف لم قيل: (الذين ينفقون) ولم يقل: (المنفقين) في غير موضع؟

وقيل كثيراً: المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر وأثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين إلا أن لكل محل ما يليق به. فحيث يراد تجدد حقائقها أو أثارها فالأفعال. وحيث يراد الاتصاف بها فالأسماء»^(١).

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ﴿٧﴾ [غافر].

(١) البرهان ٤/٦٧.

وقال : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى].

ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى : ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران] أي أصحاب هذه الصفات .

ومثل ذلك التسييح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف]. و ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة] .

ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين : إحداهما : في وصف نبي الله يونس عليه السلام قال : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات]. بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت . فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف . والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسييح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يونس إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسييح .

والثانية : في صفة الملائكة ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات] أي هذه صفتهم الثابتة . وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء] إذن فالتسييح وصف ثابت فيهم .

«وانظر هنا الى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم] وقال : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج] ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد].

ومنه قوله تعالى : ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف] لأن البصر صفة لازمة للمتقي، وعين الشيطان ربما حجت فإذا تذكر

رأى المذكور ولو قيل: (يُبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عود صفة^(١).

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارئ يفعله من يستحقه ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر] وقال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر] وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة].

في حين وصف الشيطان بذلك فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌ مُّبِينٌ﴾ [القصص] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج] كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿وَلَا ضَلَّانَهُمْ وَلَا مَتِّبِنَهُمْ﴾ [النساء].

فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العلية الثابت والمتجدد الهداية فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج].

وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان] وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة] وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس] فشتان ما بين الوصفين.

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنثِقُ حَدِيثَ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات].

«ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسو بينهما، وذلك لأن قوله: (سلاماً) بالنصب تقديره: نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقدير فعل. وقوله: (سلام) تقديره: (سلام عليكم) أي: بتقدير اسمية الجملة. والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حيا الملائكة

بخير من تحيتهم»^(١). قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء] فرد التحية بخير منها.

وجاء في «التفسير الكبير» أن «إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار»^(٢).

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَجَاءَ وَعَلَىٰ قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف] فجاء بالصبر مرفوعاً أي: بتقدير الجملة الاسمية لأنه وَطَّنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل: (فصبراً) بالنصب بتقدير الفعل أي: لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فثمة فرق بين الاستعمالين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، إمّا الإمساك بالمعروف أو التسريح الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد] كيف جاء بـ (ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهمزة] فانظر كيف قال: (ويل) بالرفع ولم يقل: (ويلاً) بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة إسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به. ولو قال: (ويلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم. ثم انظر كيف قال

(١) معاني الأبنية ١٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٨/٢١٢ وانظر الكشاف ١/٣٨-٣٩، ٣/١٦٩، بدائع الفوائد ٢/١٥٧.

في آخر السورة: ﴿ إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.

فانظر هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتوح والختام. وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.

٢ - وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعلٍ آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل] فإنه جاء بالفعل (تبتّل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتّل) وذلك أن مصدر تبتّل هو (التبتّل) فإن مصدر (تفعل) يكون على (التفعل) كتعلم تعلماً وتقدّم تقدماً. وأما (التبتيل) فهو مصدر بتّل لا تبتّل فإن (التفعل) هو مصدر (فعل) كعلم تعليماً وعظم تعظيماً. وكان المتوقع أن يقول (وتبتل إليه تبتلاً) غير أنه لم يقل ذلك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنَي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتّل على وزن تفعل و (تفعل): يفيد التدرج والتكلف مثل: تجسس وتحسس وتبصّر وتدرّج وتمشّى وغيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرّجاً وتكلفاً. ألا ترى أنّ في (تبصّر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشّى) من التدرج ما ليس في (مشى)؟

وأما (فعل) يفيد التكرير والمبالغة وذلك نحو: كسر وكسّر، فإن في كسر المضاعف من المبالغة والتكرير ما ليس في كسّر الثلاثي فقولك: (كسرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كسرت القلم) فإنه يفيد أنك كسرت مرة واحدة. وكذلك قولك: (قطعت اللحم) فإنه يفيد أنك جعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعت مرة واحدة. وتقول: (موت الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال:

(موت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبتل) فقال: (وتبتل إليه تبتلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال (وبتل نفسك إليه تبتيلاً) لم يفد غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبتل إليه تبتلاً وبتل نفسك إليه تبتيلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل.

جاء في (التفسير القيم): «ومصدر تبتل إليه: (تبتل) كالتعلم والتفهم ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعل) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيداناً بالتدرج والتكلف والتعلم والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتل إليه تبتلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره.

وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز»^(١).

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيهه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع الى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانه بالكثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له. فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً.

(١) التفسير القيم ٥٠١-٥٠٢.

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجبياً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال: (وتبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والقياس أن يقول: (أن يُضِلَّهُمْ إِضْلَالًا بَعِيدًا) «لأن مصدر (أضل): الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والمعنى أن يُضِلَّهُمْ فَيَضِلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وقد جمع المعنيين: الإضلال والضلال في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضِلَّهُمْ ثم يريد بعد ذلك أن يَضِلُّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتْمِنُونَهَا. فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو^(١).

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين. والمعنيان مرادان والله أعلم.

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ عَجِيبٌ﴾ [ق].

(١) معاني النحو ٥٨٩/٢.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَتُوبَنَّ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقِيءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود].

وقوله في مكان آخر: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَقِيءٌ عُجَابٌ﴾ [ص].

فأنت ترى أنه قال في سورة ق: (هذا شيء عجيب) وفي هود: (إن هذا لشيء عجيب) وفي سورة ص: (إن هذا لشيء عجاب) فعدل من عجيب إلى عجاب، وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته ففي آية (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر منهم فقالوا: (هذا شيء عجيب).

وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم (انظر سورة الذاريات ٢٩) وبعلمها شيخ إذ كل ذلك يدعو إلى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يستحيل على العقيم أن تلد. فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بعلمها شيخ كان أبعد وأبعد ولذا أكد العجب بأن واللام فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَقِيءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود] بخلاف سورة (ق) فإنه لم يؤكد العجب.

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحداية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردعهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحسبك أن كلمة الإسلام الأولى هي: (لا إله إلا الله) وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلنوا الحرب الطويلة على أن يقرؤا بهذه الكلمة، فالقتل أيسر عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من (عَجِيب) إلى (عُجَاب) وذلك أن (فُعَالًا) أبلغ من (فَعِيل) عند العرب فد (طُوال) أبلغ من (طويل) فإذا قلت: (هو رجل طويل) فهو الطويل يكون مثله، فإذا زاد عن المعتاد قلت: هو طُوال ونحوه: كريم وكُرام، وشجيع وشُجاع.

فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع، وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِزَةً
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْفِقُونَ إِيَّايَ بِرِيءٍ وَمَا تَشْرِكُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ
مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ [الزخرف].

فانظر كيف عدل من (بريء) إلى (براء) من الصفة المُشَبَّهة إلى المصدر
«وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام
الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن
الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلًا من ربه أعلن حربه
على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين»^(١).

ولذا قال في الآية الأولى: (بريء) وفي الثانية: (براء) وذلك أن (براء) أقوى من
بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك: (هو رجل
عدل) أبلغ من قولك (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي:
لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه. وقولك: (هو رجلٌ سوءٌ) أبلغ من
قولك: (هو رجل سيئ) فمعنى رجل سيئ أنه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء)
أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه
السلام: ﴿قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَّ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود] ولم يقل إنه عامل
غير صالح، والمعنى أن ابنك تحوّل إلى عمل غير صالح ولم يبق فيه من عنصر
الذات شيء، أي: تحوّل إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسّد لكان
ابنك. فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون -
أعني نون الوقاية - في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: (إنني براء) ولم يأت بها
في آية الأنعام بل قال: (إني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد^(٢).

(١) معاني النحو. ٣٨٨/١.

(٢) انظر معاني النحو. ٣٨٨/١.

فانظر كيف أكد براءته في آية الأنعام بالنون وبتحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحه الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها واعتني بكل لمسة من لمساتها، وصدق الإمام الرازي إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل كالأية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) فإنّ (الرحمن) على وزن فعلان و (الرحيم) على وزن فاعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو: عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في: عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف: (فاعيل) فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو: كريم وبخيل وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس (طويل) مثل: (عطشان) في الوصف ولا (قبيح) مثل (جوعان). «ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول: (هو ضعيف) إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت: (هو ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين: ألا ترى أنك تقول لصاحبك: أنت ضعيف، فيرد عليك: أنا منذ نشأتي ضعيف. وتقول له: أراك طولان. فيقول: أنا طويل منذ الصغر.

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فاعيل)... فإن صيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فاعيل) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجدها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تقطع، حتى لا يستبد به

الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه^(١).

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَنُتُ﴾ [يوسف].

فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل معه: (سنبلات) مرة ومرة أخرى: (سنابل) وسر ذلك أن سنابل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة، وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكرير ومضاعفة الأجر فجيء بها على (سنابل) لبيان التكرير.

وأما قوله: (سبع سنبلات) فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكرير^(٢). فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [شاكراً لأنعمه آجبتنه وهدنه إلى صراط مستقيماً] [النحل].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمة) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطبق الانسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال: إنه شاكر لأنعمه،

(١) معاني الأبنية ٩١ - ٩٢.

(٢) التفسير القيم ١٥٤ - ١٥٥، البرهان ٢٢/٤.

ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ٧٨]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ﴾ [لقمان: ٢٤]. فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد ذكرت في كتابي «معاني الأبنية في العربية» أمثلة أخرى لاستعمال صيغ الجموع المختلفة. وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٢].

فقال مرة: (معدودة) ومرة أخرى: (معدودات) مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف. وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة) دل ذلك على أن عندكم جبلاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة. والأنهار في قولك: (أنهار جارية) أكثر منها في: (أنهار جاريات) وعلى هذا فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يُحَرِّفُونَ كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: ﴿أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْهُهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

فهم يعرفون جزمهم ويُفَرِّقُونَ به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد توعدهم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ بِهَا مِنْهُ نَمًّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمناً قليلاً .
 وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: (إلا أياماً معدودة)
 فجاء بصيغة الكثرة .

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
 الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُوقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
 لَن نَّمَسْكَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ .

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من
 ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين . فجاء
 بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال:
 (معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب
 العالمين .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ يَٰعَلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٤﴾ [الأنبياء].
 وقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٦﴾ [الفرقان].

فقال في آية الأنبياء: (السماء) وفي آية الفرقان: (السموات) وسبب ذلك
 أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت
 في نفسي كذا وكذا؟

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنسَ
 الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ [المجادلة].

جاء في (الكشاف) أن «القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به
 العلم بالسر وزيادة فكان أكد في بيان الاطلاع على نحو أهم»^(١) .

والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن (السماء) في القرآن تستعمل على
 معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ

(١) الكشاف ٣٢١/٢ وانظر تفسير البيضاوي ٤٢٦ .

الَّذِينَ بِمَصْبِيحٍ ﴿١٤﴾ [المُلك] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح] والسما هنا بمعنى المطر.

وقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١٧﴾﴾ [الرعد] والسما هنا بمعنى السحاب.

وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام] والسما هنا بمعنى الجو.

والمعنى أن الضالَّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في الجو لأن المرتفع في الجو يضيق صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع المنطادات والطائرات بدهور.

وقال: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيُقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج].

والسما هنا بمعنى السقف، أي: مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليمدد جبلاً إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به لأن محمداً منتصراً لا محالة. وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذلك.

ولا شك أن السما بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع. فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) مع السما التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع الخاص والخاص مع الخاص.

ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

فلما جاء بالسموات قال: (عرضها السماوات والأرض)، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال: (عرضها كعرض السماء والأرض) فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلِّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال: (أعدت للمتقين) وفي آية السماء قال: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسوله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسوله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسوله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسوله بذكر صفتها الواسعة (كعرض السماء) وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ: (السماوات) التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]. وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّع دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر (السماء) وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسوله وهم يشملون المتقين وزيادة. وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة. فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلَّت حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

فقال في أصحاب الجنة: (خالدين فيها) بالجمع وفي أصحاب النار: (خالداً فيها) بالإفراد وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المستلزم لزيادة الأناج والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية يس على التصريح) في هاتين الآيتين: «ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.

وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء (خالدين) لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.

أما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في (خالداً) (١).

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف].

وقوله في قصة شعيب: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: (رسالات) قالوا: وذلك أن شعيباً بعث إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وصالحاً بعث إلى أمة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف].

(١) حاشية يس على التصريح ١٤٠/١.

وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: (أخوهم). قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف، هود ٨٤، المؤمنون ٣٦].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه: (أخوهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء].

ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء].

فانظر كيف قال: (أخوهم) مع الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أرسل إلى غير قومه.

فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف]. وقال صالح: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسْرِفِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء].

وقال على لسان شعيب: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٧٧) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٨) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (٧٩) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (٨٠) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨١) وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى (٨٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا (٧٨)﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا (٧٧)﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا (٧٨)﴾ [هود].

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة، وخذ الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وخذ مع الرجفة وجمع مع الصيحة^(١).

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ (٤٧)﴾ [يونس].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ (٤٧)﴾ [يونس].

فقال: (يستمعون) بلفظ الجمع وقال بعده: (ينظر) بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائيين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يحتمل الجمع والمفرد. وذكر الكرمانى أنما فرق بينهما « لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٨٤، ٢٣٩.